مقابلة أدبية مع : توفيق يوسف عواد

بقلم عفيف فراج

جاء توفيق عواد بعيد منتصف الثلاثينات جوابا على سؤالين انطرحا على الساحتين الاجتماعية والادبية .

كان التراث الادبي يسأل : حتى متى ينتظر ادبنا المحلي والعربي لحظة الوصال مع القصة والرواية باعتبارهما شكلين ادبيين ازهرا فوق غصون الحضارة الجديدة على مدى قرون ؟

وكان الواقع الاجتماعي التاريخي يسأل : الى متى ينتظر مخاض الجوع والالم الذي لف شعبنا تحت المظلة التركية خلال الحرب العالمية الاولى ؟ الى متى ينتظر القلم الذي يستنطقه ويستوحيه ليخلد الذين ماتوا نكرات بلا اسماء او اكفان فوق كل الدروب والازقة وفي عتمة الاكواخ التي سرق منها الرغيف ؟. كان الواقع ينتظر القادم الذي يعطي الجراح السنة تردد اصداء الكرامة التي ناحت والحريات التي شنقت ..

وقد اجاب توفيق عواد على السؤالين بمجموعة « الصبي الاعرج (١) القصصية ثم برواية « الرغيف » ..

في مقدمته لـ « الصبي الاعرج » حس بالرهبة يعتري كل من يقتحم ساحة عذراء غير مأهولة بعد .... فقد كانت الشجاعة والمغامرة والخلق موضع اتهام دائم من الفكر التقليدي والسلفي الذي قنع من رحابة الكون بصدفة زمنية مغلقة ، ومن تاريخ الحضارة الانسانية الفسيح باحدى لحظاتها الساطعة .

ـ« ان اشتغلت بالقصة على ما يفهمها الادب العالمي اليوم ، فلا يعني ذلك انني اقلد ، بل امد يدي الى مائدة انا مدعو اليها، وكل اديب عربي مدعو معي الى طيباتها » .

كان توفيق عواد من الذين بكروا في ادراك حقيقة انه ليس هناك من حضارة تخصب ما لم تتفاعل وتمد يدها للمائدة الحضارية المترامية فوق شتى ارجاء المعمورة ، وان تمركزت في احدى المراحل التاريخية في رقعة جغرافية محددة .

لقد مد الغرب يده في عصر النهضة لياخذ ضمن ما اخذ ـ من مائدة « الف ليلة وليلة » ويؤصل فن القصة . وقد بدأ توفيق عواد عملية تاصيل هذا الفن الذي لم يكن قد تاصل في ادبنا بعد ..

وقد احتوت مجموعة « الصبي الاعرج » وخاصة قصتي « الجرذون الشتوي » و « حنون » جنين المجاعة الذي تعلق في رواية « الرغيف » تلك الرواية اللبنانية وربما (٢) العربية الاولى التي تبقى نصا تاريخيا وفنيا جميلا لمرحلة لم يكن الجمال ابرز سماتها قطعا .

ثم اختفى توفيق عواد .. سكن الكهف المعزول وسكت مدة قاربت الربع قرن وحين التقى بالكلمة من جديد كان اللقاء عاطفيا. يضعها في مقدمة « السائح والترجمان » (٣) ويعترف بعشق لا يساوم :

« ان طيفك لم يغادرني. كان يأكل من صحني وينام على مخدتي وكان ياخذ بخناقي بحضرة الملوك يقولون لي : انحن ! فيصيح في عيني : لغيرها ما انحنيت ولن افعل » .

ولا ريب ان ملوك الفكر والصحافة والسياسة افسدوا ما بينه وبين الكلمة . فزين له الذين انتهكوا حرمة الكلمة الصمت فصمت يحس « الحياة جثة مشلوحة على كتفيه » ولا ريب ان رائحة عفن تسربت من دائرة وجوده وغشيت حواسه . فالبراءة تنوح في كل ما كتب .

مرغوا في الهواء حسنك لما
حدهم منك في الهوى عصيان
جرحوا شوهوا استباحوا وراحوا
وكذا فعل عجزها الخصيان (٤)

ان لارتداد الكاتب المذعور عن عالم الواقع اسبابا تتجاوز الذات وتتصل بالواقع الذي ينشد اليه الكاتب الذي لا يضاجع ذاته بأسلاك العصب ... وهذا لا يعني ان العنصر الذاتي لم يكن له كلمة الفصل في قرار الاستنكاف .

لا شك ان الموقع الاجتماعي لتوفيق عواد قدم له بديلا مغريا عن الصراع بالكلمة ضد اعدائها وتجارها . وفي تصوري ان توفيق عواد لم يحترس من غناء الجنيات كما فعل اوليس ، فلا هو اصمّ اذنيه عن الاصوات الساحرة المنبعثة من الجزر المعزولة ، ولا شد نفسه

---

(١) صدرت عام ١٩٣٦ .

(٢) نقول ربما ، لاننا لا نملك بعد تاريخا للفنون الادبية على نطاق قومي .

(٣) صدرت عن دار المكشوف عام ١٩٦٤ .

(٤) من ديوان قوافل الزمان الصادر عام ١٩٧٤ .

الى سارية سفينة ميناؤها محدد وطريقها صريح ليحميه الوثاق اذا استسلمت الارادة . والذي تسحره الجنيات يطول غيابه وتطول غيبوبة اقلامه .. لكنه يعود .. سالته وقد اختار ان يملأ بالحوار بعض يومه الاخير في لبنان قبل سفره :

ـ ما سر فترة الصمت التي امتدت بين « الرغيف » و« السائح والترجمان » وقد قاربت ربع قرن ..

ـ ذلك سؤال طرحه عليّ الكثيرون وطرحته على نفسي مرارا » ولم ازل وليس بامكاني ان ان اجيب عنه بوضوح فان الابهام يكتنفه من كل جانب لسبب بسيط ... انه مثقل بالحياة ، حياتي ، وحياة من حوالي . والحياة ابهام ان لاح فيه برق من وقت الى اخر فالضباب هو السائد .. ولكنني اعتقد انها فترة من كفر بي بقيم الفكر اطلاقا . على اثر ازمة انتابتني في سني الحرب الاخيرة ثم امتدت بي حتى ابعدتني عن الجو الذي الفته في مطلع شبابي ـ اي جو الكتابة ـ الى جو اخر هو الحياة البسيطة ، انصرفت اليها بكل جوارحي استمتع بها بعيدا عن الحيوات التي يخلقها الفن. وكنت في هذه الفترة مخلصا بين نفسي وبين الناس عندما كنت اصرح لهم انني (انتهيت) كما تقول الاغنية القديمة :« انا هويت وانتهيت » وانني لن اعود الى الادب ابدا .

فاذا بالبركان ينفجر فجاة ذات يوم على غير وعي مني فكان « السائح والترجمان » وقد وصفه النقاد بالفعل انه انفجار بركان ثم كانت لي « طواحين بيروت » وبعدها « قوافل الزمان » فانا الان في الجو الذي كان لي عهد « الصبي الاعرج » و« قميص الصوف » و « الرغيف » . واحسّ من نفسي عودة الى الشباب .

حين تأملت الاجابة ، لم استطع الموافقة على ما قاله النقاد في « السائح والترجمان » .. فالحوارية كانت حوارا جماليا مع اللغة اكثر منها تجسيدا لحركة او تجسيما لحدث درامي يكشف صراعا بين قوى وافكار اجتماعية .. لقد صيغت من مادة فكرية جمالية، ترتدي ثوبا شعريا فائق الاناقة جميل النمنمة ..

انها تعبر عن مفهوم شبه صوفي لوحدة الوجود والدعوى الرسولية للاخوة الانسانية ، وانشاد حلم السلام بين الامم والشعوب. الجماعات والافراد الموحدي المصالح . بهذه الرؤيا يبني عواد هيكلا للحب بين البشر على اساس « السلام بين الانسان ونفسه » كاساس للسلام العالمي والاخوة الانسانية ، وبهذه الرؤيا المثالية الجمالية تدور كؤوس المحبة على الجميع .

« في وحدة للوجود
لا تعرف السدود
ولا الحدود
موصولة الاجيال
مشدودة الامال
مربوطة الاجيال
بالخلود ! » (ص ١٤٧)

وبذلك يستعيد الانسان الوهيته المستلبة التي « انشطرت عنه وعنها انشطر » .

حين عدت اطالع رؤيا الكاتب لم ار لها وبراكين . قلت انها المرجة الاولى التي زارها ربيع الكلمة بعد شتاء طويل تمدد وتمطى على مدى ربع قرن من الصمت . اما البركان فقد انتظر ثماني سنوات اخرى حتى تفجر في « طواحين بيروت » (١) .

---

(١) صدرت عام ١٩٧٢ عن دار الاداب .

اما الحلم الوردي الذي تردد في « السائح والترجمان » فقد ذكرني بكلمات برتولد برشت في قصيدته « انتم يا من ستولدون » :

« صدقة انني ما زلت احيا
نفسي تشتاق الى ان اكون حكيما
الكتب القديمة تصف لنا من هو الحكيم ؟
هو الذي يعيش بعيدا
عن منازعات هذه الدنيا
يقضي عمره القصير
بلا خوف او قلق
العنف يتجنبه
والشر يقابله بالخير
الحكمة في ان ينسى المرء رغائبه
بدل ان يعمل على تحقيقها !!
غير اني لا اقدر على شيء من هذا
حقا ... انني اعيش في زمن اسود .. »

ان حوارية « السائح والترجمان » هي حلم الهارب من جور الواقع ورواية « طواحين بيروت » هي العودة والتذكر ، المجابهة والانفجار ، هي الذكرى التي تمردت على النسيان وعادت لتحكي ربما عن سر الهرب الاصلي ...

كيف راى توفيق عوّاد بيروت ؟

رآها بالعين التي فاجا بولس الرسول بها « روما » فتكشفت له عن مدينة تضاجع ملوك الارض السبعة فساطها بسياط برقه ورعده . بيروت هي مدينة التجارة والتتجير قرا عليها من الوراءومن الامام عنوانها الكبير « برسم الايجار » فاستنزل عليها لعنة « الزفت والكبريت » والهواء الاصفر . طلب النار والدمار لمدينة تتعامل مع النفوس البشرية وكانها شقق خالية . اما البراءة المستباحة فانها في غمرة يأسها تحلم « بقنبلة ذرية تنسف الكون لتعد روح الله ترف على وجه القمر » .

هنا يتعلق الحس بالبراءة المفقودة والعذرية المسفوحة على عتبة المدنية ـ المسلخ .. تميمة الطالبة المنجذبة كالفراشة من قرية « المهدية » الجنوبية الى قنديل الافكار المتوهج في مدينة ما درت ان الفكر فيها يباع والاقلام تؤجر لمن يدفع الثمن الاعلى ؟ تميمة هذه تحترق اجنحة حلمها في قنديل يحرق ولا يضيء . وزنوب الخادمة تذهب ضحية الست روز القوادة وزبائنها ، تحبل ثم تنتحر ..اكرم بك الجردي وشوكت بك اليفموري زعيمان سياسيان مناضلان ولكن « من اجل رفع عمارة كالمنارة » . « وكلاء الله على الارض » يتاجرون بالتعصب . ورمزي رعد الصحفي الناري الكلمات المستأجر في بيت الست روز والمستأجر يفترس تميمة ، يتوجع على مصير زنوب ، وفي لحظة صحوه تتداعى خواطره تلف المدينة بالسنة اللهب :

« ايها الكتاب العظام ، والشعراء الخالدون ، بنات افكاركم، بنات افكاركم ترى من تضاجع بناتي الحلوات في هذا الليل ؟» .

بيروت التي يرسمها توفيق عواد صورة لا تساوم على الصدق . ومهما كان الصدق موجعا فهو المفضل على خدر الوهم واحلام التمني . ولكن السؤال يفرض نفسه . ما هي امكانات التجاوز؟ من هو الجنين الذي ينبض في « عتمة الرحم ..» الضوءالكاشف عند الكاتب ينزلق بسرعة عن الجسم الطلابي الذي يبدو ممزقا بين شتى المناخات الثقافية والجامعية المتناقضة وينزلق عن الجنوبيين الذين يلوبهم آلام العدوان ، ينزلق بسرعة اكثر عن العمال

الذين يبقون في الظل . يتراءى لي ان توفيق عواد حين شاهد هذه القطاعات الاجتماعية الوسيعة الواعدة كان يمسك بالمنظار من الناحية الخطأ فبدت جد بعيدة ومصغرة .. كما ان المعلومات عنها تبدو معلبة بواسطة الصحافة الاخبارية ، وليست ماخوذة من الواقع الحي ومن موقع الاختلاط والتمازج الحميم معها وبها .. اصارح الاستاذ عواد بان الكثير من الحقائق التي تعرضها رواية « طواحين بيروت » عن القطاعات الشعبية تبدو مستنفدة وعائمة على مستوى الخبر الصحفي ، وانها من نوع الـ

Second hand Knowledge

.. قال لي بصراحة انه كان في طوكيو عندما كتب الرواية .. وان استشهاده بمقاطع من الصحافة التي علقت على الاحداث الموصوفة كان احد انعكاسات المسافة المباعدة .

لاحظت اثناء قراءة الرواية ان البندقية الفدائية التي حملتها بطلته لم تكن اختيارا حرا يتسق مع نمو شخصيتها ، ولايجيء كتصور حتمي لهذا النمو . وانما كان اختيارا املته الضرورة وفرضه اليأس .. حدثني عن منافذ الامل في الرواية ولم اكن ابحث عن منافذ الامل وانما كنت احاول قياس الزاوية الاجتماعية التي يطل منها على الواقع والتي تحدد في النهاية ابعاد الرؤيا وآفاقها ...

سألته : ـ بطلة « طواحين بيروت » هربت من « قن » القرية الجنوبية لتسقط في « طواحين بيروت » . هل ترى بديلا ثالثا بين القن والطواحين ؟.

اعجبته صيغة السؤال محددا وواضحا ، فابتسم واجاب : « بين قن المهدية وطواحين بيروت ، هناك « دير المطل ». فهاني الراعي يمثل في سلوكه وافكاره واهدافه الطريق السوي المؤدي الى الخلاص . هاني الراعي اخذ الصالح من القديم والجديد ، لم يلتحق التحاقا وانما امسك الغربال وموّجه فخرج بتركيب عاقل » .

اتذكر ذلك « الكف » الذي تلقته « تميمة » من هاني الراعي وهي تعترف له بعلاقتها القديمة مع رمزي رعد ، وهي تخلع عنها الماضي كما يخلع الثعبان جلده ، وهي تستشرف انقى الافاق وتتنشق من على شرفته نسيم الطهارة المقبلة ... ذلك « الكف » اليس هو من بقايا القديم التي علقت في « الغربال » اليس التركيب العاقل هو المعادلة الازدواجية المزقة ؟.

اسأله :« اتريد بطلا مزدوجا لا يعرف الانسجام مع النفس او الارتياح الى الفرح فوق فواصل الدين الموهومة وتقاليد الشرف والعفة المصونة ؟

الاستاذ عواد يوافق على انها ازدواجية ولكن المسألة كما يقول ـ عن حق ـ ليست فيما اذا كانت هذه الازدواجية صحية او غير صحية ، انما هي مرحلية وقائمة . وهاني الراعي مطالب بان يدقق النظر اكثر فاكثر لكي يتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ..

فهاني الراعي الشاب المسيحي وطالب الهندسة في اليسوعية، كان منذ بدء علاقته بتميمة الفتاة الجنوبية المسلمة ، يتحسس الضغوط الاجتماعية التقليدية على قناعاته . ولكنه خنق هذه الضغوط ولم يترك لها فرصة التنفس في كلمات ... بقيت الضغوط تتراكم يشير اليها بغموض بين الحين والحين « سنختلف في اشياء كثيرة » يقول لتميمة ، ولكنه كان يقاوم بصعوبة متزايدة ، حتى كاشفته بعلاقتها برمزي رعد ، فعامت كل كوابته الاجتماعية التقليدية وفجرها في هذه الصفعة . وحين صفعها كان يصفع نفسه ايضا في الوقت الذي كان يصفع فيه حبيبته تميمة ... »

صمت الاستاذ توفيق . ولكن عقلي كان بعد يسأل ويجيب .هنا يسقط هاني الراعي وفي جب المرحلة بالتحديد .. يحاول النهوض متعتمدا على مرفقيه ، اتخيله نصفه في الجب والنصف الاخر عائم .. مجرح ينزف الكثير من دماء رفضه وتمرده على تعصب بيئته وضيق افقها وفدرالية طوائفها . انه لم يتشكل ولم يتصلب ولم يدق بمطارق التجربة . انه باختصار ليس بطلا ، كما ان تميمة ليست بطلة ، والرواية تخلو تماما من عنصر التجاوز البطولي المأساوي والايجابي على حد سواء .. انه يريد انشاء حزب اسمه « حزب الاصحاب » وتميمة رفيقة له في الحزب. ولكن ليس لهذا الحزب اية هوية فكرية . بل هو كما يقول لي الاستاذ عواد « يبحث عن هوية فكرية ويفتش غير انه على ما يبدو لم يجد بعد الفكر الذي يتقمصه ويصفحه ضد القديم بالدرجة التي تكفي للملمة جراح رفيقته وحبيبته تميمة . زيارته للعجوزين في قريته « الطوطمين » ، كما يشير اليهما ابطال الرواية ، ترمز للالتصاق بالقديم بشكل مجرد ، لان الرواية لا تقول لنا اي قديم ؟ او ماذا يمكن للطوطمين ان يقدما لشاب مثل هاني الراعي .اوليست هذه العلاقة الروحية مع الطوطمين العجوزين في « دير المطل » من ضمن الروابط التي تشده الى الماضي بعيدا عن تميمة والمستقبل؟

اصارح الاستاذ عواد باني لا أرى بطلا باي مقياس . اعقد مقارنة بين ابطال روايته الاولى « الرغيف » المتماسكين في الرؤيا ، الثابتين على طريق هادف محدد ، المناضلين من اجل لقمة الفقراء الجائعين ، اراهم في الجبل اللبناني في ثياب « روبن هود » يشكلون العصابات المسلحة يسطون على الذين سرقوا واحتكروا الرغيف ، واراهم جنودا في جيش الثورة العربية ضد الاستعمار .

اقارنهم بابطال « طواحين بيروت » فاحصل على مفارقة .. رؤيا الشخصيات الرئيسية في الرواية الاخيرة هيولية ومضطربة وان كانت لا تفتقر الى التصميم على الوصول الى الوضوح .

الاستاذ توفيق لا يشاركني تفضيلي لرواية « الرغيف » لكنه يبتسم ابتسامة المتفهم والمستدرك وهو يقول « كثيرون يشاركونك رأيك .. ولكن المرحلة الحاضرة التي تناولتها في « طواحين بيروت » شديدة التعقد بالمقارنة مع مرحلة الحرب الاولى التي استقيت منها مادة « الرغيف » وهي مرحلة كان العدو فيها واضحا محددا وكذلك الصديق . كان هناك التركي المستعمر على ضفة والوطنيون اللبنانيون والعرب على الضفة المقابلة .. المسألة الان ليست بهذه البساطة .. »

(اتذكر خضم الالوان الثقافية والطائفية التي تعرض لها الرواية الاخيرة .. طوائف الاحزاب واحزاب الطوائف ، الجامعات والمؤسسات المتضاربة الاتجاهات .. واراى بيروت مدينة الست روز .. مدينة الجراذين ذات العيون الماسية التي تبرق على الصدور المتهدمة) . ادرك صعوبة العثور على البطولة . توفيق عواد يمسك بنا ، يدير وجهنا نحو المدينة معرّاة من الاصباغ والازياء ، يقول : انظروا ، افي مثل هذا المناخ ينمو نبت البطولة ..

* * *

« حلفت بصبح الوصل والصبح اشقر ... وربك واللائي بهن تسير
تلفت تجدني خامس الركب انني ... عليم بأشياء السرور خبير

(من ديوان قوافل الزمان)

جو بيروت والحديث عنها يخففه لون البحر الذي لا يتعب من غسل شواطئها .

نتنقل الى اجواء أفرح .. اسال الاستاذ عواد :

ـ رغم السواد الذي يكلل اوسع مساحات الرؤيا للواقع الموضوعي ، فاني ارى من خلال الرماد وميض فرح ذاتي ساطع لا شك انك عرفت كيف تقطفه ، ورغم اوجاع الحياة فانك ترفض الموت وتعتبره كما اقرأ في بعض قصائد البيتين عقابا يفوق حجم اكبر الخطايا . ما هي المقومات الوجودية التي زينت لكالحياة؟

ـ « اختصرها بكلمة : انها المحبة .. فانا انسان يشعر بوحدة الوجود ويستمتع من هذه الوحدة بغبطة فائقة . تضربني بشاعات الحياة حتى اذا لاحت ابتسامة على وجه نسيت البشاعات كلها . وتاخذني العواصف حتى اذا هبت بعدها نسمة غمدت بالنسيان اصداء العواصف ، وذلك سحر الحياة . هذه الوحدة سرت في تضاعيف قصائد كثيرة من ديوان « قوافل الزمان ».. اذكر لك منها القصيدة التي تحمل عنوان « حلم » وفيها اقول :

« مشيت ليلي على ضوء المحبة في

مدينة من بنات الفجر بيضاء

على الدروب وجوه لي مسلمة

من كل صوب وكل الناس اسمائي »

والواقع ان هذه النظرة للحياة ليست نسيج حلم ليلة صيفوان كان قد يكون كذلك بالنسبة للاخرين .. انه بالنسبة لي الحقيقة التي اعيشها مع الذين اعرفهم والذين لا اعرفهم مع اصدقائي ومع اعدائي على السواء . وهذا ما يشكل لي سعادة احس معها انني قريب من الله » ..

اتأمل اجابته : وحدة الوجود : الاعداء ، الله ، المفاهيم تستثير فضولي الفلسفي فاندفع الى منطقة الخطر :

ـ « وحدة الوجود » هل تعني بها المذهب الحلولي الرومانتيكي؟ « الله » علاقتك به مضطربة ترفضه ، تقبله ...

يرفع كفيه كأنه يريد وقف تدفق الاسئلة ادرك اني دخلت منطقة محظورة .. يقول :

ـ « أنا انسان بسيط ولا احب الفلسفة ! »

حاولت الدخول محاذرا من ابواب جانبية . لكن حساسيته مرهفة اندرته بدبيب الاقدام .. يقول لي : « معك المؤلفات وهي لك، فاقرأ فيها اجاباتي .. »

تراجعت ... تذكرت انني اتعامل مع مؤلفات توفيق عواد كناقد هاو وليس كصحافي محترف ..

اقلب صفحات « السائح والترجمان » يطالعني في الصفحة الاولى مفهوم الانسان .. الذي خلق الآله على صورة رغائبه ومطامحه:

« السائح

الآلهة ! اين الآلهة

النحات يمد يده الى جيبه فيخرج مطرقة وازميلا ويرميهما على الارض في جيبي (ص ٤٩) .

السائح أآلهة كثيرة صنعت ؟

النحات عدد شهواتي وآمالي ومطامحي واحلامي . (ص ٧١)

ونقرأ الرفض العقلي للعقوبة التي نزلت بآدم وهو يحاول الوصول الى الالوهية بالاكل من شجرة المعرفة :

« من اجل تفاحة يا رب تطردني

تفاحك المر ملء الارض الوانا

ان كان معصية في كل معرفة

سآكل الدهر عرفانا وعصيانا »

في قصيدة « صراخ هابيل » تتردد اصداء الاحتجاج العقلاني على تجريم الانسان وهو بريء وعقابه وهو الذي لم يرتكب اثما وفي « ذنب وغفران » يقف امام الله الاسطوري بكامل قامته ليرفض من الاساس قواعد لعبة المحاكمة الميتافيزيقية :

« لا جنة ارتجي يا رب او سقرا

اخشى اذا انت يوم البعث ديان

حسبي وحسبك اني اذ تحاسبني

ذنبي الحياة وان الموت غفران »

وهو يمشي الى يوم الحشر ، على صدره علق الآثام اوسمة ، يفاخر بها بكبرياء :

« لبست ليوم الحشر ثوب وقاره

حياكة ايامي وتلوين احلامي

على الصدر ازرار له برقها دم

واوسمة بالحب تبرق آثامي »

الا ان هذه الكبرياء المتمردة وهذا العنفوان المتسامق وهذا الاعتداد بانسانية الانسان لا يتخذ له مجرى ثابتا وانما يغور في تشققات الرؤيا التي تجزيء الانسان الى اله وحشرة . فالاله يتولد دائما من هذا الجزء الاخير .. ان الشاعر والروائي ينطلق في فهمه للانسان من جزئية اللحظة والموقف ولا يصل الى مرتبة اعلى من التجريد الذي يؤدي الى مفهوم علمي ينتظم الانسان في علاقته الصراعية الجدلية مع الطبيعة .

فالانسان تبعا لهذه النظرة التجزئية يعيش لحظات ومواقف . في لحظة الضعف والانقسام على الذات هو حشرة ، وفي موقف المنسجم مع ذاته هو اله . وحين يتحسس الشاعر دونية الانسان في مواقف الضعف يتجه بعينيه الى السماء ليستنجد بالقوة التي صنعها الانسان من ضعفه ، من قوته المستلبة وماهيته العاجزة عن التحقق في الوجود المحسوس ... .

في قصيدة « خبز الحق » يشكو الشاعر الى الله اجتناب الانسان لخبز الحق الذي يبيع اما في قصيدة « بابل » فان نقمته على الانسان وعلى ذاته الانسانية تتفجر دعاء الى رب السماء ليضرب بسيف النقمة رقاب العباد الكافرين .

« رب السماء هدمت قالوا بابلا

فارتد عنك السائل المتطاول

هلا ضربت على المدى اعناقنا

في كل عنق من عبادك بابل »

هذه القصيدة تتعارض مع قصيدة « خلق جديد » على خط مستقيم:

« ربي اعرتك من نقصي الكمال ومن

موتي الخلود ومني كل ما وهبا

فاردد معاني وانفخ في من نفسي

ومن اماني عمر كونك الخربا »

وهذا المفهوم الاخير هو الذي يسود حوارية «السائح والترجمان» حيث الاشارة صريحة لانشطار الله عن الانسان . فاذا كانت قوة الله وكماله من صنع ضعف الانسان ونقصه فان التوجه الى الله

يتخذ طابع الرمز الشعري وليس المفهوم الميتافيزيقي التقليدي . اي ان الشاعر يوظف المفهوم السائد عن الله شعريا ليجسد رفضه لضعف البشر الذي منه تنبثق ثنائية المخلوق والخالق او « الطين والخزاف » كما يرمز اليها الشاعر في احدى قصائده :

« وفي النفس اضداد عفيف وفاجر
ضعيف وجبار بري ومجرم
انا الطين والخزاف اقرع بعضها
ببعض اباريقا اسوي واحطم »

من ثنائية « الضعف والقوة » المثالية هذه يصوغ القصاص والشاعر مفهومه المثالي الخاص للثورة .. انها « الثورة على النفس» وهو نفس مفهوم بطله « هاني الراعي » للثورة . والثورة على النفس لا توصل في اعتقادي .. الا الى الحياة الاخرى واخشى ان يكون هذا المفهوم للثورة هو في اساس غياب الرؤيا الاجتماعية المستقبلية الواضحة عن رواية « طواحين بيروت ..»

ولكن يسجل لتوفيق عواد انه لم يقفل باب البحث ولم يوح بنهائية الواقع المعطى وسيبحث دون ريب مع بطله الذي عاد يسأل عن تلك التي صفعها وسيغامر مع بطلته التي تغامر في الليل حتى يطلع الفجر في رواية اخرى من واقع لا يبخل على المستقبل بوعد .

* * *

الثنائية عنوان كبير لاوسع قطاعات مثقفي المرحلة وحساسيتي منها تدفعني للمزيد من السؤال عنها ..

ـ استاذ توفيق ، استلفتني في ديوان « قوافل الزمان » تجاذبان بين شعراء يمكن اعتبارهم اقطابا متنافرة .. فمن جهة تمشي في ركب ابن ابي ربيعة وتنتشي على قرع كؤوس ابي نواس ومن جهة اخرى تحمل تقطيبة جبين ابي العلاء وكل جديته ، تنام في عباءته وتكاد تناديه والدي .. كيف تحقق لك مثل هذا التواءق ؟

يكر الجواب مصطحبا الابتسامة ....

ـ انه تجاذب فني يقوم على الصعيد الفني . فكل جميل يجذبني بقطع النظر عن الفكرة بحد ذاتها ، عن طبع الكاتب ، عن نظرته الى الكون . والجميل عند الشعراء الذين ذكرت كثير تحفل به دواوينهم واحفظ لهم منها منذ عهد الصبا ابياتا اترددها الى اليوم . وقد يناقض بعضها البعض في المعنى والهدف وهذا يسوقنا الى الشق الثاني ،اي المضمون ، والمضمون بحد ذاته عبارة عن مجموعة من المتناقضات كالتي تحفل بها الحياةوالكون. اليست الحياة فرحا ، وترحا ، ضحكا وبكاء ، عرسا وجنازة؟ ثم اليس الكون ، من حيث هو ، صيفا وشتاء ، هدوءا واضطرابا، نورا وظلاما ونحن في النتيجة صورة مصغرة عنه ؟ فانا اعربد مع ابي نواس لانه يحسن العربدة ولان العربدة في داخلي سواء سمعها الناس ام غابت عن اسماعهم ، وانا اغامر مع ابن ابي ربيعة في الحب واسلك مسالكه الوعرة :

« حلفت بصبح الوصل والصبح اشقر
وربك واللاتي بهن تسير
تلفت تجدني خامس الركب انني
عليم باشياء السرور خبير »

اما ابو العلاء فهو المعبر الاكبر عن السواد الذي يكتنف نفسي كلما نظرت الى مصير الاشياء واردد الى اليوم بيتا له :

والارض للطوفان مشتاقة لعلها من درن تغسل

هذا التشاؤم الذي امتزج فيه مع ابي العلاء وامثاله ليس تشاؤما مغلقا ان صح هذا التعبير بل هو احتجاج على الشوائب لعل الطوفان يغسل الارض منها « ليبقى الجمال والخير والحب وحده » .

بقي يشغلني سؤال : هذه الموهبة التي تفتحت على القصة والرواية وغيرها من الفنون ، مَنْ من المواهب الكبيرة استثمارها وحرثها لتغرس في ارضنا الرواية والقصة ؟

اسأله : تقول في مقدمة « الصبي الاعرج » انك اذ تتناول هذه الاشكال الجديدة فانما تشعر بانك تمد يدك الى مائدة انت مدعو اليها . من هم الذين وجهوا لك الدعوات الاولى الى مائدتهم ؟

ـ دعتني الى هذه المائدة الطاهية الكبرى ، جدتي في حكاياتها لنا ونحن صغار حول الموقد في الضيعة ، وتلاها ابي وكان محدثا بارعا يمسك الانفاس اذا روى خبرا او حكى نادرة ، يوزع الاضواء والظلال على الاشخاص ، ويعرف كيف يزحمهم وكيف يفرقهم وكيف يعرضهم على السامعين وكانهم يشاهدون مسرحية او فيلما سينمائيا ثم تأثرت بعد ذلك بابي الفرج الاصفهاني قبل ان اقرأ الروائيين الكبار .. وانا معجب منهم بنوع خاص بدستويفسكي واعده سيد من زاول هذا النوع الادبي في لغات العالماطلاقا ».

انني كتبت قصصي ورواياتي الاولى بعفوية افتقدها اليوم وكانت هذه القصص والروايات تنطلق على قلمي باشخاصها العديدة وحوادثها انطلاقا طبيعيا . لا اذكر انني عانيت في سبيل تسويتها عنتا او ارهاقا فكانها كانت مختزنة في داخلي ولك انت ان تفسر ذلك اذا شئت بما حفلت به طفولتي خلال الحرب العالمية الاولى وما اتيح لي بعد ذلك ان اعيشه من جو قروي قد زال اليوم اكثره مع الاسف ..

ولكني احس ان الاسف الحقيقي انه قد سكت لمدة ربع قرن ... ولا ادري لماذا يصعب عليّ وربما عليه غفران هذا الصمت ..

دار الطليعة تقدم
دراسات سياسية

* **كارل ماركس : تاريخ حياته ونضاله** فرانز مهرنغ
* **مراسلات ماركس ـ انغلز**
* **ستالين : سيرة سياسية (طبعة ثانية)** اسحق دويتشر
* **التصور المادي للنظرية الماركسية** كارل كورش
* **عشرة ايام هزت العالم (طبعة ثالثة)** جون ريد
* **ماركسية تروتسكي** ماندیل ، كراشو ، ...
* **ماركسية ماوتسي تونغ** شرام ، غارودي ، ...
* **النجم الاحمر فوق الصين : المراحل الاولى من الثورة الصينية ..** ادغار سنو
* **الثورة الثقافية البروليتارية في الصين** جان دوبيه
* **نصوص حول الثورة الدائمة** ماركس ، انغلز ، لينن ، تروتسكي
* **حول الحزب اللينيني** ارنست ماندیل
* **الفلاحون والثورة (طبعة ثانية)** حمزة علوي

دار الطليعة ـ بيروت ـ ص.ب ١١١٨١٣